مقدمة

قامت الثورة إذن! ولم يكن أحدٌ مستعدًا لأن يثور. حدثت المعجزة، وانهار النظام الورقي، الذي كان يبدو حديديًا، تزول الجبال ولا يزول، وانطلق الناس ينفضون عن أعينهم آثار النوم، فهم لا يزالون غير مصدقين ما حدث. لم يتخيل أحد أن ما كان يتراءى للعيان من قلاع ووزارات وحصون، ليس إلا ماكيتًات كرتونية تُستعمل للتمويه والخداع البصري، وهربت الكتائب البوليسية كالجرذان المذعورة، وسقطت الخوذات تحت الأحذية، فظنها الأطفال الصغار لعبًا أو حاويات للحلوى، فتقاذفوها في الشوارع وعلى الأرصفة. وكانت الفراشات اللاتي يرتدين أعلام مصر، غير الفراشات اللاتي كنا نغازلهن في الشوارع، كن يهتفن باسم مصر، تتحول أنفاسهن الندية إلى قنابل عنقودية، تلتهم صدأ المدن، ولافتات الحزب الوطني الشائخة، وكانت أجنحتهن الملونة، كرات نارية تحرق قمامة ومخلفات ثلاثين عامًا من الزي الكاكي الأسود.

كانت المشاهد الأسطورية التي يرويها التاريخ في ذاكرة الطفولة تتضاءل شيئًا فشيئًا أمام مشهد مصر، وأدرك الفلاسفة أخيرًا أن الحقيقة ربما تتجاوز حد الأسطورة، وأن النظريات الثورية، لم تزل بكرًا، مهما حاول أن يفض أسرارها المنظرون.

قامت الثورة إذن فلولا تصدقون!

قدَّمت مصر نموذجها الثوري، فلم يكن أقل شموخًا من نموذجها الحضاري، تكلمت مصر وسكت العالم، وانطلقت العواصم تهمس في أذن الأرض: ما بال هذه الأمة تسبقنا دائمًا؟ ما بال هذه الأمة تشغلنا بآثارها وثوراتها، وتجبرنا على أن ندون تاريخها في تاريخنا؟ إلى متى ستظل مصر سيدة الكون الأولى؟

قامت الثورة إذن فلولا تصدقون..

خرجت الثورة من رحم البساطة والعفوية والعاطفة والحماقة أحيانًا، لم تنطلق من الكتب، ولا من الصالونات الخاصة، ولا من البزات الداكنة، لم تخرج من لحى الملتحين ولا من عمائم المعممين، ولم تكن الثورة حنفية المذهب، ولا شافعية، لم تكن ليبرالية ولا يسارية، كانت الثورة مصرية، لا تتعصب لمذهب ولا طائفة، فمصر أكبر من المذاهب، ومصر أوسع من الأيديولوجيات، والذين يُصرون على أدلجة مصر، ستقدم لهم مصر باقة من ورود جميلة، وتطبع قبلة على جبينهم، ثم تقول لهم انصرفوا إلى مكان آخر، لقد جئتم إلى العنوان الخطأ.

إن الخلاف المحتد الآن بين فريقين استقطابين، أحدهما يزعم علمانية مصر وهي ليست كذلك، والآخر يجزم بإسلاميتها وهو قول عاطفي، فيه صواب وخطأ، كلا الفريقين يعاني من قراءة وجدانية للواقع، وهذا يطرح علامة استفهام على مخزون الوعي السياسي

لدى الفريقين، ومدى قدرتهما على استيعاب ملامح وخصائص اللحظة الراهنة.

مصر لا شرقية ولا غربية، فهي لا يحدها مذهب، ولا تحتويها طائفة، مصر علم على ذاتها، يستدل بها ولا يستدل عليها. لكن الذين كانوا يختبئون تحت الملاءات الدافئة، والذين كانوا يحتسون قهوة ولي الأمر، خرجوا جميعًا كالعناكب السوداء والعناكب البيضاء، لالتهام النتائج، وهم قد عارضوا الأسباب! وكلهم أصر على أن ترتدي مصر ثياب غيرها، وهم لا يعلمون أنها لا تلبس إلا من عمل يديها.

هذا الكتاب محاولة لفض الاشتباك بين القوالب الجاهزة، محاولة لتتصافح كل الأيدي بلا استثناء، لتشارك في بناء مصر، وتقديم نموذج للدولة يبهر العالم كما بهرته الثورة. ربما يضم هذا الكتاب بعض ملامح مشروع حضاري ينطلق من أرضية واقعية لا وجدانية فقط، أو على الأقل ربما يجعلنا نُعيد النظر فيما نطرحه من أفكار بدافع العاطفة.